قصة قصيرة

الضباب

الدكتورة يمنى العيد

الطائرة تهتزّ، والكابتن يعلن ضرورة ربط الأحزمة. المرأة تطلب من المضيفة كأساً أخرى من النبيذ.

لم يبدأ الهبوط بعد.

ما زال هناك أكثر من ساعة للوصول إلى مطار أورلي.. ومع ذلك فالضباب يبدو على مستوى الطائرة.

بعد دقائق ستغوص فيه.

لماذا لا ترتفع الطائرة فوق الضباب؟ فكّرت المرأة، ينتابها شكّ في قدرتها على التحليق عالياً.

تتفحّص المرأةُ الطائرة من الداخل: القماش البرتقالي الذي يغلّف المقاعد بدا باهتاً، خاصّة عند موضع الرأس. لقد استندت الرؤوس إليه زمناً طويلاً فبرته وتركته يعلن عن عمره. الرفوف الجانبيّة التي يضع المسافرون فيها حوائجهم تستجيب بسهولة لاهتزازات الجسد الذي يحملها.

تئنّ.

وتترك مغالقها تنفتح بسرعة، ثم تستريح لتخلّصها.

أوقفت المرأة رحلة عينيها الداخلية، أفرغت ما تبقّى من النبيذ في جوفها الجافّ وقد تقطّن، وطلبت كأساً أخرى.

لا.

لن تلتفت إلى الخارج، لن تنظر عبر مربّع الزجاج الذي على يمينها، لن ترى إلى الجناح الحديديّ. تقاوم رغبتها في التأكّد من صلابته.

تريد أن تراه...

لكن..

من يضمن لها أن لا ترى كسراً، ثغرة، خيطاً من دم؟!

تشدُّ باليد على الأخرى، وبكفّ الواحدة تلمس برودة أصابع الثانية، تطوي رؤوس الأصابع مداورةً، تحزّ بالأظافر الجلد.. تتأمّل يديها. لا تستغرب ارتجافهما. تعرف السبب. هذا الاضطراب تعانيه منذ رحيله. لقد عاندت توتّرها وقرّرت مغادرة بلدها، علّها تغادر رحيله. وتساءلت: ماذا يعني الرحيل عن الرحيل؟.

ما زالت الطائرة تهتزّ.

المضيفة تقترب من المرأة، تقدّم لها كأس النبيذ الأخرى التي طلبت، تنظر في وجهها وتبتسم.

تحرّك المرأة جسدها فوق المقعد كأنّها تبدّد اضطرابها، أو كأنّها تخربط هيئتها التي لاحظت ارتسام صورة مخجلة لها في عيني المضيفة.. ثم، وكمن يفشل، تشدّ بيدها على كأسها، تمطّ كفّها وأصابعها حولها، وتطوّقها باليد الأخرى، وتحاول رشفة خفيفة تداري بها نفسها.

الضباب يتكاثف، يدخّن، يزوبع.. والطائرة تسبح فيه مترنّحة كأنها أثقلت عليه بحملها.

ربما! قالت المرأة.

ربما لا يعرف قائد الطائرة الوزن الفعلي لما يحمله هؤلاء المغادرون بلدهم. لقد نظرت إلى حقائبهم المفتوحة أثناء التفتيش في مطار بيروت، لقد كان فيها الكساء والطعام والأحذية.. إنهم يحملون مؤونة تكفيهم طويلاً وحتى يستقرّوا. إنهم يحملون كل شيء، قالت، ما عدا الأرض. الأرض تبقى هناك.. وحدها تنتظر. قبلاً كانوا يسافرون، وكانوا يعودون محمّلين بأجمل شيء: العطور والألبسة والكتب. فكّرت، وضحكت.. ولم تكن هي تسافر، ولم تكن تكترث.. كانت فقط تسمعهم يقولون: لكل طائرة حملها. وكل شيء في ميزان. لكنها رأتهم في المطار، كانوا مثقلين بالحقائب والأكياس والصرر. مهاجرون يحملون أضعاف ما كانوا يحملون.. هل يثقلون على الطائرة؟ لا. لا. هناك مراقبون. لكن من يدري لعلّ هؤلاء المراقبين يتساهلون.. لعلّهم يرتشون..

هل يعقل؟

هل يعقل أن يسمح المراقب بمثل هذه المخاطرة؟ هل يكفي أن يقف هو على الأرض كي يبعث بجميع ركّاب الطائرة إلى الهاوية؟ هل يكفي أن يكون هو خارج هذا الجسم الحديديّ كي يقبل بالرشوة؟

ودّت المرأة لو تعلن هواجسها، لو تصرخ بها عالياً. . . لكنها لجمت رغبتها.

ثمّ، وكمن يعقل عموم الحال في بلده تساءلت:

من يعقل؟

النبيذ.

ورشفت بعضاً منه، ثم احتوت رأسها بين كفّيها وضغطت على الصدغين:

لماذا لا تزال الطائرة تهتزّ؟

عادت المرأة تجول بنظرها داخل الطائرة، تكرّر رحلتها فيها:

الوجوه.

ماذا تقول العيون فيها؟ ماذا تقول للضباب الذي يطوّقنا جميعاً؟ تساءلت.

الأطفال.

وحدهم تتلألأ عيونهم بطمأنينة مدهشة. وحدهم يترقّبون بفرح دنوّ الهبوط.

النبيذ والأطفال.

الأطفال.

قالت، وأدنتْ الكأس من صدرها، وتطلّعت إلى لون السائل الأحمر فيه. كانت تحسّ بداية خدر لذيذ يسري في دمها. . أطرافها أخذت تتنسّم شيئاً من الراحة. . تسترخي، تعطف على استرخائها، تداريه. حين نسترخي يولد الأطفال بلا ألم. قالت. ثم مطّت ساقيها قليلاً إلى الأمام، أخذت نَفَساً عميقاً، وطوّقت صدرها بذراعيها وراحت تشدّ بهما فوق قلبها.

مستسلمةً لموجة الخدر تصغي المرأة إلى حركة اهتزاز الجسم الحديديّ الذي يحملها. تحاول أن تتبيّن إيقاعه. . . يبدو لها أنه انتظم، واتّسق دفق الضباب الذي يحمله.

الضباب.

كل شيء يضيع في الضباب وهي تحاول أن ترى.

تدير رأسها، تنظر عبر مربّع الزجاج الذي على يمينها، ترى الجناح الرماديّ.

تراه.

ينبسط واسعاً، يتمدّد، يتغلغل في موجة الضباب المتراقصة، يعلوها حيناً، ويتركها تعلوه حيناً آخر.

الضباب والجناح.

الرمادي والرمادي.

من يغازل من؟.

الضباب يتكاثف، يتشكّل كقوس، كجسر. . يرتفع داعياً الجناح الحديديّ للعبور. . ثم يستدير حوله، يطوّقه متوتّراً في حنان. . والجناح يرتجف، يميل تارة إلى اليمين فينخفض. ينخفض الجناح ضاغطاً على الضباب تحته، ثم يعود فيعلو، كأنّ كثافة الضباب الذي تحته تدفعه من جديد، فيميل إلى اليسار. . يميل الجناح الرماديّ ويرتفع خفيفاً كاشفاً عن فجوة زرقاء في زاوية من الفضاء.

نشوةٌ هاربةٌ تتسرّب إلى جسد المرأة، وصوت ثرثرة الأطفال الذين جمدوا في مقاعدهم يصلها مترنّحاً. تغمض عينيها، تترك رأسها يستريح فوق أعلى المقعد، تسترخي عضلات وجهها، وكفّها تمسك الآن بكفّها. تحتضن الأصابعُ الأصابعَ. وهي، تلاطف نشوتها، تستضيفها بامتنان، وتدعوها أن لا تستعجل الرحيل. تودُّ أن تراه.

تراه:

كان يلفّها بجسده، وكان جسده قوياً صلباً، ومن صلابته كانت ذراعاه تمتدّان كجناحين. جناحان رقيقان يتموّجان كشلاّلين طالتهما ريح. يأخذها بينهما، فتغوص في صدره، تدفن رأسها في كنزته الرماديّة، تمرّغ وجهها في طراوتها. الرماديّ يملأ فضاء عينيها. رماديّ بريء، يتّسع، وهي تسبح فيه وتكتشف مجاهل النشوة. . تداعب نعومة الصوف برؤوس أصابعها، تمدُّ يدها تحته، تتلمّس حرارة الجسد وتَعبُّ كفّها من دفئه. . ثم يدوران متعانقين في فراغ المكان. . .

الدوران! تستيقظ المرأة عليه.

كل شيء يدور.

كل شيء يتكوكب.

الأرض

الطائرة

والتراب الذي هو جسده الآن.

حجارة الأرض تتحرّك، توشوش للتراب فينقشع. . .

وتراه.

يخرج من موته، يمسح آثار الدماء عن جبهته، ثم عن عنقه، ويتقدّم نحوها.

تبتسم المرأة فوق مقعدها في الطائرة. تبتهج. فلقد خرجت من خوفها.

إنها تراه.

«ينتظر في مطار أورلي، يفتح ذراعيه لها مستقبلاً، يضمّها إليه قوياً، والناس في المكان كثر. تجفل. لا. . يهمس في أذنها. الناس هنا لا يحكمون بالموت على المحبّين. يضحك عالياً، ويضغط رأسها إلى قلبه».

أحسّت المرأة أن جسدها يخفّ، يهرب منها، يرتفع ويطير. . .

إنها حقاً تطير وترى:

يركضان معاً في شوارع باريس. باريس رماديّة. . والضباب يهبط، يكاد أن يحطّ فوق رأسيهما. تمطر. تمطر غزيراً. تنظر إلى حذائها الجديد. . ستغرقه المياه ويتلف. تقول له. فيرفعها بين

ذراعيه، يرميها فوق ظهره ويضحك. يدور بها في المدينة الممطرة، تنظر من على ظهره إلى فوق، تشعر أنها تقترب من الضباب المتراخي فوقها. الرماديّ يحتضنها وهي تحوِّم في موجه...

الموج!

كانت تخاف الموج.

ـ سأسبح بك بعيداً. كان يقول لها.

ـ لا. أرجوك. لا..

ـ لا تخافي. سأحملك فوق ظهري. سأحملك أبداً...

وكان يشدّها إليه، ويروح يكنّس زبد الموج بذراعيه، يضرب بهما الماء.. الأزرق.. تراه.. تخلع عنها خوفها، تفكّ ذراعيها عن عنقه، ترخيهما، تدعه يسبح بها بعيداً.. يعلو فوق الموج. يقول: نحن فوق قمة ماء.

تحت الماء.. إنها تمطر..

تحت الرماديّ..

فوق الموج

الموج والضباب

الضباب يتشكّل على هواه ثم يضيع كل شيء فيه.

تبحث عنه...

ـ كانت الرحلة ممتعة. لم أكن أعلم أن السفر بالطائرة لذيذ لهذه الدرجة. ستقول له. كيف أمضيت كل هذه السنوات محرومة من هذه المتعة! كيف صدَّقت أن ركوب الطائرة مخاطرة بالتأكيد! لن أتردَّد بعد الآن.

كانت المرأة ما تزال مسترخية في مقعدها حين أعلن الكابتن عن بداية الهبوط:

«نقترب من مطار أورلي».

النشوة تتملّكها.. كأنها تعانقه. تعانقه!! والنشوة تنبعث في خلاياها..

لقد بدأ الهبوط.

تكاد تصل إلى الذروة.

ستحطّ فوق الأرض.

إنها تقترب.

ما زالت تهتزّ.

وتشتدّ رجفتها.

تلمّ المرأة أطرافها فوق المقعد، تكوِّمها كمن يردّ الرماد فوق جمرةٍ لا يودّ أن تنطفىء.

«الطقس سيّىء في باريس» أعلن الصوت.

تفتح المرأة عينيها، تنظر حولها، تبدو وجوه المسافرين باهتة، والأطفال سكتوا.. المضيفة تقف هناك، عند الستارة التي تفصل ركّاب الدرجة الأولى عن ركّاب الدرجة الثانية.. وجهها راكد..

تستدير المرأة بنظرها نحو مربّع الزجاج الصغير الذي إلى يمينها..

ترى:

الطائرة ترتفع من جديد، تبتعد عن الأرض التي اقتربت منها. الضباب كثيف يلفّ الطائرة. يتوهَّج بالبرق، والمطر يضرب الزجاج والحديد.. تقترب المضيفة من المرأة، تقف أمامها، تمدّ يدها بشكل آلي وتسوِّي لها مقعدها. تتأكّد من أن حزام الأمن ما زال مربوطاً حول وسطها. تبتسم المرأة لها. تسأل: كم من الوقت مضى!

تتراجع المضيفة، دون أن تستدير، إلى حيث كانت. هناك عند الستارة الفاصلة. وجهها راكد.. وشفتاها مزمومتان.

«الطقس سيّىء، إنها تمطر فوق باريس». قال الصوت.

والطائرة تعلو من جديد، تدور في فضاء المدينة، تحوِّم فوق مطارها. تحوِّم غارقة في الضباب.

إنها العاصفة.

تدنو المرأة برأسها من مربّع الضوء المعتم، تلصق وجهها بالزجاج، تتحسَّس برودته..

لا شيء سوى الرماديّ. يتكاثف. تتراصّ ذرَّاته.. يبدو كتلة بهيمية هائجة.. تدور.

الضباب..

تراه.

هناك..

يلوّح لها بيده.. يقفز فرحاً نحوها.

ـ كم طال انتظاري.. كم حلمت بهذا اللقاء!

يمسك بيدها، يصعدان معاً إلى المترو.. يريها كيف تفكّ مغلق بابه حين يقف.. يجلس قبالتها.. يختار لها نبيذاً لذيذاً.. يعلِّمها اسمه..

تراه.

يقف عند الحاجز الفاصل. يودِّعها.. يبتسم ودموعٌ مكتومة في عينيه.

تراه.

لكن خيطاً من دم كان ينسلّ من عينيه.